ثورة ١٩١٩في مذكرات الشيخ عبد الوهاب النجار "الأيام الحمراء"

أ.د. أحمد زكريا الشلق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب – جامعة عين شمس

كاتب هذه المذكرات أو "الأيام الحمراء" هو الشيخ عبد الوهاب النجار (١٨٦٢–١٩٤١) أحد علماء الأزهر، ومن مؤرخي وفقهاء زمانه المستنيرين، ينتمي لأسرة عربية من أصول حجازية، حيث كان جده السابع قد وفد إلى مصر، وكان والده الشيخ سيد أحمد النجار قد استقر بقرية "القرشية" بالقرب من طنطا، حيث أنجب ابنه، وكان يتمتع بمكانة طيبة أهلته ليكون كبيرًا للكتاب بدائرة القصبي باشا بطنطا، وكان ممن يميلون إلى التصوف، وحدث أنه كان يقرأ في كتاب الطبقات للشعراني ساعة بُشر بمولد ابنه، فسماه عبد الوهاب تيمنًا بمؤلف الطبقات، ولعله أراد أن يكون من العلماء المتصوفين، فسار في تربيته على نحو يؤهله لذلك، فعمل على أن يحفظ القرآن في طفولته، ثم أرسله إلى الجامع الأحمدي بطنطا حيث تلقى مبادئ علوم الدين واللغة والأدب على شيوخ عصره، قبل أن يرحل إلى الأزهر ليتم تعليمه فيه. وفي طنطا تعرف على الفتى حافظ إبراهيم، وكان شاعرًا ناشئًا آنئذ يعمل كاتبًا لدى أحد المحامين، فهامت نفسه بحب الأدب وصار أحد فرسان ندوة حافظ الليلية بطنطا.

وعندما انتقل إلى الأزهر درس فترة قصيرة، عكف فيها على قراءة كتب الأدب والتاريخ، ثم انتقل إلى "دار العلوم" وهناك صار زميلا لعبد العزيز جاويش وتتلمذ على يد الإمام محمد عبده، حيث درس على يديه مقدمة ابن خلدون. وقد تخرج منها عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) ليعمل مدرسا للغة العربية بمدرسة طنطا الابتدائية الأميرية، ومنها عاد مرة أخرى إلى القاهرة مدرسًا بمدرسة عابدين التابعة لوزارة المعارف، وقد أثاره أن المدرسة الإنجليزية بباب الخلق تمارس نشاطا تبشيريا علنيا تحت رعاية الوكالة البريطانية، فاتفق مع الأستاذ محمد زكي الدين سند، وكان من خيرة الدعاة إلى الإسلام – على تأسيس "جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية" لتجمع الشباب في منتداها لتفنيد مزاعم المبشرين وتهتف بمجد الإسلام، وكانت أول

جمعية تؤلف للدعوة الإسلامية بمصر، وقد اتسع نشاطها وضمت عددًا من الوزراء والعلماء والقضاة وصار لها مجلة تسجل محاضراتها وتذيعها على الناس. وشرع النجار يغذي الصحف اليومية بآرائه الدينية والاجتماعية، والتي تعالج شئون الإصلاح حتى علا ذكره بين القراء والمثقفين. والمعروف أن نشاط الجمعية لم يرق لولاة الأمور، فأصدر وزير المعارف قرارًا بنقل الشيخ إلى أسوان، فأبى هذا أن ينفذ القرار وقدم استقالته ليعود إلى طنطا مشتغلاً بالمحاماة الشرعية.

ولما كان اسمه قد صار لامعا، فقد اختير بالسودان مدرسًا للأدب والشريعة في "كلية جوردن" بالخرطوم، حيث قضى بها نحو عامين، عاد بعدهما إلى القاهرة ليستأنف عمله بالمحاماة الشرعية، حتى عين أستاذا للأدب بمدرسة البوليس والإدارة "مع الإذن له بالمحاماة".ولم يلبث أن اختير للعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في كلية الآداب بالجامعة المصرية خلفا للشيخ محمد الخضري، ثم انتقل أستاذا للشريعة والمنطق بدار العلوم عام ١٩٢٣، واستمر في عمله هذا حتى بلغ السن القانونية وأحيل إلى المعاش عام ١٩٢٨. وقد أراد الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر آنئذ أن يستفاد من علمه فعينه ناظرًا لمدرسة عثمان ماهر باشا، ثم رأت مشيخة الأزهر انتدابه لتدريس الدعوة الإسلامية والتاريخ الإسلامي لطلبة التخصص بكلية أصول الدين، وظل يؤدي هذا العمل حتى عام ١٩٣٣، وهناك ألقى محاضراته عن "قصص الأنبياء" متصديًا، لأول مرة في تاريخ التحقيق العلمي النزيه، لكشف الزيف المختلط بسير الأنبياء، ثم أصدر محاضراته في كتابه الشهير عن "قصص الأنبياء" والذي أثار جدلاً عنيفًا في الدوائر الرسمية بالأزهر، امتد أثره إلى الجرائد والمجلات والرأي العام.

ولأن شيخنا وضع أمامه قواعد علمية تحدد اتجاه البحث تستند بالدرجة الأولى إلى العقل "ركن المعتقدات الأولى" وتؤمن بأنه إذا تعارض الخبر مع العقل وجب

تأويل الخبر بما يزيل هذا التعارض، وأن أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة فيما نصت عليه، بل هي أوجه، كما يجوز حمل القرآن عليها يجوز مخالفتها.. ولأن هذا الكتاب يدرس في الأزهر، وفيه من لا ينحو هذا النحو غير المألوف في التفكير، ومنهم نقاد الشيخ ومخالفوه؛ فقد أثاروا ضجيجًا وصخبًا، ورفعوا الأمر إلى شيخ كلية أصول الدين "الأستاذ عبد المجيد اللبان" فبادر بتشكيل لجنتين علميتين لقراءة الكتاب ونقده، نشرتا تقريرين يتضمنان بعض المآخذ.. وقد كان جميلاً من الشيخ النجار أن يثبت التقريرين في الطبعة الثانية من الكتاب. وكان الأساس الذي يستند إليه النقاد أن آراء السلف لا تقبل التعديل، وأن ما ذكره النجار يبعد في بعض اتجاهاته عما دون في كتب الأقدمين، فعقب شيخنا على هذا النقد بمنطق سليم ولغة حوار علمي راق، لا يتسع المجال للتفصيل فيه، وإن كشف عن منهجين متعارضين من التفكير العلمي.. وليس ثمة مصادرة ولا قمع أو تكفير.

وفيما يتعلق بمجمل كتابات الأستاذ الشيخ، فإلى جانب "قصص الأنبياء"، وضع كتابًا عن "تاريخ الخلفاء الراشدين" كما نشر بالصحف والمجلات المعاصرة له أبحاثًا أدبية وتاريخية ودينية طوال حياته، خاصة في صحف اللواء، والأهرام، والجهاد، وكوكب الشرق، والرسالة، والإسلام، ومكارم الأخلاق، والشبان المسلمين، والهلال، ودار العلوم، والجامعة المصرية.. الخ. كما وضع كتابًا تحت عنوان "زهرة التاريخ" وهو كتاب مدرسي طبع الجزء الأول منه، كما أن له مذكرات كتبها عن رحلة قام بها إلى الهند. وقدجمعت مؤلفاته عن تاريخ الإسلام في ستة أجزاء، فضلاً عن مذكراته عن ثورة ١٩١٩ والتي نشرت بصحيفة البلاغ عام ١٩٣٣.

وإذا كان الشيخ النجار من علماء الأزهر الموسوعيين، فإن مجاله المحبب والأثير في البحث والدراسة هو التاريخ، فالشيخ مؤرخ راسخ القدم، أستاذًا ومعلما، وباحثًا

عالمًا، فقد كان ملمًا بأصول الثقافة الإسلامية، دارسًا للعلوم العصرية المستحدثة، وكان له منها نصيب وافر جعله ابن زمانه، ولم يكن رجلاً متخلفًا عن ملاحقة سير الحياة ونمو المدنية الحديثة التي تتفتح فيها أسرار الطبيعة للعقول، فكان يعلم من مباحث علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء وفنون الصناعات والآليات ما كان يثير إعجاب سامعيه، وهو شيخ معمم تقدمت به السن، رقق الأدب والشعر طباعه وهذبت الثقافة العامة روحه، فكان من خيرة الدعاة للإسلام، داعية للإصلاح الديني والاجتماعي، يقرن التاريخ بالأدب.. والذين يقرءون مؤلفاته التاريخية يدهشون لسعة حريته وأصالة نقده وعمق تحليله، لا يقبل المسلمات، وإنما يخضعها لجهره يقلب وينقب فيها حتى يصل إلى حقائق جديدة بعد إمعان النظر والاستدلال، وقد ورث هذا النظر عن أستاذه الإمام محمد عبده حين درس عليه مقدمة ابن خلدون في دار العلوم، فكتب في مذكراته أنه كان عاشقًا لكتابة ابن خلدون، مما أصلح كتابته وقوَّم أسلوبه عندما أغرم بمحاكاته، وتعلم منه نقد عبارات المؤرخين، ووزن الحوادث بالبصيرة.. لقد كان النجار يمتلك ذاكرة نيرة، تستوعب الأحداث المختلفة استيعابًا شافيًا، ومن ورائها عقل مدرك، ينظم ويرتب، وينفي ويثبت.. وكان الباحثون يتناقلون آراءه الصائبة في كثير من قضايا التاريخ.

ولا نستطيع أن ننهي هذه السيرة دون أن نشير إلى مجال مهم من مجالات نشاط الشيخ في حياته الحافلة والثرية، وهو مجال الدعوة الإسلامية، حيث سعى مع الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور عبد الحميد سعيد إلى تأليف "جمعية الشبان المسلمين" لتقوم برسالة الإسلام الثقافية والاجتماعية، وترد الثقة بحضارة العرب وعظمة الإسلام، ونهض بجزء كبير من نشاطها العلمي والثقافي والإداري، حتى صار وكيلاً لها، فجلجل صوته في منتداها وكان محررًا لباب الإفتاء في مجلتها حيث كشفت

فتاويه عن ثقافة أصيلة، وخبرة تعي تطورات العصر وملابسات العرف وتطور التشريع. ولما كان من نشاط الجمعية تقوية علاقات المحبة بين الدول العربية والإسلامية، فقد كان النجار من أهم سفرائها إلى سوريا ولبنان والعراق وتركيا والهند، مؤديًا رسالة الجمعية، خطيبًا مفوهًا، وكاتبًا قديرًا في صحفها، وله مذكرات عن هذه الرحلات، بعضها نشر والبعض الآخر ربما لا يزال مخطوطًا.

سنلاحظ أنه بدأ نشر هذه المذكرات في ٢٢ مارس عام ١٩٣٣ وانتهت في ٥ يونيو من نفس العام (أي بعد أن سجلها في أوراقه الخاصة أو يومياته بنحو أربعة عشر عامًامن قيام الثورة) وعالجت الفترة من ١٠ مارس ١٩١٩ حتى ٢٣ يونيو من نفس العام، وسنجد أنه بدأ تسجيل اليوميات منذ ١٥ مارس وإن عاد بالذاكرة إلى يوم ١٠ مارس. وقد نشرت في إحدى وسبعين حلقة في صحيفة "البلاغ".

وسيلاحظ القارئ للمذكرات أن هناك حلقات ثلاث فقد جزؤها الأول الذي كان يرد في الصفحة الأولى من الجريدة، بعد أن أدرك التلف الصحيفة (وهي الحلقات ٥٠، ٥١، ٥٢ عن الفترة من ١٤إلى ١٦ مايو ١٩٣٣). ونود أن نشير إلى أن نسخة قسم الدوريات بدار الكتب المصرية من "البلاغ" تنقصها أعداد متفرقة من الصحيفة، وأننا استطعنا بعد جهد جهيد أن نجد هذه الأعداد في مكتبة الدوريات ببلدية الإسكندرية، فصورناها،ليكتمل نشر المذكرات.

وينبغي الإشارة إلى أن صحيفة البلاغ لتي نشرت اليوميات كانت تنطق بلسان حزب الوفد، وكان قد أصدرها عبد القادر حمزة في يناير ١٩٢٣، وكان مقربا من سعدزغلول، وقد عطلت اكثر من مرة (عام ١٩٢٣، ثم في عهد وزارة محمد محمود عام ١٩٢٨، ثم في عهداسماعيل صدقي عام ١٩٣٠) حتى أعيد إصدارها في يونيو عام ١٩٣١ تحت اسم "البلاغ الجديد"، ثم عادت إلى اسمها الأول "البلاغ" في يوليو

من نفس العام. وفي عام ١٩٣٢ حصلت على يوميات الشيخ النجار لتقدمها للقراء.

أما عن هدف الشيخ النجار من كتابة ونشر هذه المذكرات فقد أوضح، وهو المؤرخ بحكم عمله، تدريسًا وتأليفًا، وبحكم وعيه وإدراكه لأهمية الأحداث التي عاصرها للتاريخ والمؤرخين ولجمهور القارئين، لذلك أوضح في تمهيده لها بأنه"سجلها بدقة خوفًا من ضياعها في طيّ النسيان ولأن الجرائد المصرية لم تكن تذكر الحقائق كما وقعت، ولا تصدق قراءها الرواية، ولا تقدر أن تشرح الحوادث أو تفصلها، خوفًا من السلطات البريطانية"، لذلك رأى أن يسجل في يومياته هذه الأحداث والوقائع، أملاً في نشرها فيما بعد، رغبة منه "في خدمة التاريخ والحقيقة في شأن تدوين هذه الأيام الحمراء على وجه الصواب"، أما "البلاغ" والتي استطاعت أن تحصل عليها منه، فقد ذكرت أنها بنشرها تخدم التاريخ، وتذكر الناس بأحداثها، ثم الإشادة بالأيام المجيدة في تاريخ مصر، وإبراز نهضتها – أي ثورتها – التي كانت قدوة للنهضات بين أمم الشرق.

لقد سجل الشيخ مذكراته يومًا بيوم، فدون بها كل ما شاهده، وكل ما وصل إلى علمه من حوادث الثورة وتطوراتها وقت حدوثها، كما رسم فيها تأثير الرأي العام وما تقلب فيه من آراء وأحوال، وكان الشيخ فطنًا إلى مهمته كمؤرخ حين ذكر أنه كان يتحرى الصواب وتسجيل الحقيقة جهد طاقته، وأنه لم يكن يدون الشائعات الباطلة التي كانت تروج آنئذ، وكان يشير إليها أحيانا ويحاول التثبت من صحتها، وإذا لم تثبت يذكر أنها مجرد شائعة. وبخلاف ما كان الشيخ يسجله مما رآه بنفسه، فإنه كان ينشر ما وصل إلى سمعه من أخبار وأحاديث ويعزوها إلى اسم صاحبها.. ليبصر الأجيال التالية بصحيح الأخبار "وليكون وجه الحقيقة ناصعًا".

وكان صاحب المذكرات واعيًا بمهمته كمؤرخ معاصر للأحداث، فعندما ينقل

الآراء المتعددة بشأن حادثة أو واقعة معينة، يعلق مرجحا أحد هذه الآراء فيرى "أن الرأي الأخير هو الجدير بالاعتبار". كما كان يعلق أحيانًا على خبر من الأخبار بقوله "وقد تحريت ذلك أيضا فوجدته بعيدًا عن الصحة" أي أنه لم يكن يسجل ما يصل إلى سمعه من أخبار دون تحر لصدقه من مصادر متعددة، وكان يكتب في سياق مذكراته – محدثًا نفسه – "ويجدر بي ألا أثبت شيئًا من فظائع الإنجليز وعسفهم في معاملة أهل البلاد إلا بعد التثبت منه".

وغني عن القول أن عنوان المذكرات "الأيام الحمراء" قد اختاره الشيخ النجار لها بنفسه، بعد أن رأى أنه اسم "صادق مسماه ولفظ وافق معناه" فقد رأى تلك الأيام العصيبة التي منيت بها مصر وبما سال في أنحائها من دماء الأبرياء من طلاب الأزهر والمدارس العالية، من هؤلاء الذين لم يرتكبوا جرمًا ولا ذنبًا، إلا أنهم هبوا يظهرون عواطفهم النبيلة نحو وطنهم ويطالبون، في مظاهراتهم السلمية بحرية وطنهم واستقلاله، لكن الاستعمار الإنجليزي تصدى لهم ببربرية ووحشية وسفك دمائهم الطاهرة.

أما هذه المذكرات فهي تشكل مصدرًا له أهميته الخاصة في تاريخ مصر المعاصر وثورتها القومية الشعبية العارمة ضد الاحتلال البريطاني في عام ١٩١٩، وتنبع أهميتها من أنها رصدت في حينها تطورات الثورة وتفاصيل وقائعها وأحداثها في شكل يوميات، مما لم ينشر عادة في البلاغات الرسمية أو التقارير الإدارية أو حتى الصحف المعاصرة، ولا نحسب أن هناك دراسة علمية تناولت أحداث هذه الثورة دون أن يطلع صاحبها على هذه المذكرات في صحيفة "البلاغ "، بل ربما لا نبالغ إذا ذكرنا أن الأستاذ عبد الرحمن الرافعي مؤرخ حركة مصر القومية الذي اختصر عنها الكثير من الوقائع، التي أوردها صاحب المذكرات، خاصة ما يتعلق بإضراب الموظفين

ومظاهرات النساء ونحوها، فسجلت ما كان يدور من اجتماعات الكثير من السياسيين، والعمليات الاستشهادية والبطولات الفردية والجماعية، وزيف البلاغات الرسمية بشأنها، ومحاولات الإنجليز الالتفاف على الحركة الشعبية أو اختراقها، بالترهيب والترغيب من خلال أجهزة الإدارة، أو كسب فريق من الوزراء والأعيان لتهدئة ثائرة الثائرين، وصلابة الرأي العام، وصمود الشباب وتضحياته في سبيل الوطن.

فعلى سبيل المثال أوردت المذكرات نص نداء وقعه الوزراء وبعض أعضاء الوفد وأعضاء من الجمعية التشريعية وعدد من السياسيين، استجابة لطلب المندوب السامي البريطاني اللورد أللنبي في ٢٤ مارس ١٩١٩، وثبت أن الهدف منه إضعاف الثورة وإنهائها على يد "كبار البلد". وقد علق الشيخ النجار علي ذلك معبرًا عن استياء الأهالي، وأضاف بأنهم رأوا أن الإنجليز خدعوهم وأوهموهم بأن إبداء النصيحة للأهالي ضروري حتى لا يفتك الإنجليز بهم، فلما كتبوا ما كتبوا وأذاعوه لم يزل فتك الجنود الإنجليز بالأهالي مستمرًا، وبدا أن "العقلاء" في مصر مستاءون من هذه الحركة (الثورة). بمعنى أن الإنجليز استغلوا نصح المصريين لإخوانهم وأولوه على أنه استياء من تلك الأعمال التي يعتبرونها حركة سلب ونهب، وليست من الشجاعة في شيء. كما أبرز الكاتب موقف أحد كبار علماء الأزهر وهو الشيخ محمد شاكر الذي رفض توقيع هذا النداء وأنه جادل عدلي يكن ولطفي السيد وخطأهما في توقيع النداء،بمنطق وطني قويم.

وتضيء المذكرات بشكل مفصل ودقيق دور الأزهر وعلمائه وطلابه في أحداث الثورة الوطنية، على نحو لم نعهده في مصادر هذه الثورة. ربما لأن الكاتب كان في قلب الأحداث كواحد من علماء الأزهر، وصوركيف كانوا على إدراك

ووعي سياسي كبير، فمثلاً في تغطيته لأنباء الثورة في ٢٣ مارس ١٩١٩ ذكر تنبه فريق من علماء الأزهر لخدعة الإنجليز عندما عرض هؤلاء فكرة موافقتهم على سفر المصريين (ومنهم أعضاء الوفد) إلى مؤتمر الصلح بشرط إخماد الثورة وتهدئة الأحوال أولاً، فرأى الشيخ مصطفى القاياتي أن هذه خدعة من الإنجليز لأن الطلب الأساسي هو الاستقلال وليس الالتفاف حوله بالموافقة على سفر الوفد.

كما سجل الشيخ النجار دور الشيخ محمد شاكر – الوطني الكبير – ونشاطه السياسي ومواجهته لكل من رئيس الوزراء حسين رشدي باشا والمندوب السامي اللورد أللنبي، حيث التقى برشدي في ١٣ إبريل وانتقده ولامه على قيامه بدور الوسيط بين الإنجليز وبين الأمة، بينما كان ينبغي عليه أن يمثل الأمة التي تريد وزارة وطنية تمثلها في مطالبها، كما طلب إليه أن تعلن الوزارة "أنها تنكر الحماية، إذا كانت لا تستطيع أن تحمل الإنجليز على الاعتراف ببطلانها". وعندما التقى الشيخ شاكر بأللنبي في ١٥ إبريل طالبه بشكل مباشر وصريح " برفع وصاية بلاده عن مصر لأنها لم تعد طفلاً، وإنما بلغت سن الرشد، وتريد أن ترفع إلى القضاء أمرها ولكنك أنت الوصي الذي يسد فمها عن الكلام وتمنعها من أن يرسل وكيلها إلى المحكمة ليترافع في قضيتها فهل هذا معقول وعادل؟.. وعندما سأله اللورد عما تريده مصر، قال: الاستقلال التام، ولما رفض قال الشيخ: إنك لا تستطيع أن تعطيها هذا الاستقلال لأنك خصم، فدعها تتكلم أمام الجهة المختصة.. وعندما جادله اللورد بأن أمر الدفاع عن مصر ومصالح بلاده فيها ضروري لها، أجاب الشيخ بأن الدفاع عن مصر ومصالحكم فيها يمكن ان يحدث بغير حماية، وأن الحرب زالت ويجب أن تزول الحماية كذلك. ولما طلب الشيخ شاكر من أللنبي أن يدع رئيس الوزراء يقرر أن الوفد وكيل عن الأمة أجابه أللنبي بأن هذا ضد قضيتنا، فرد الشيخ: إذا كنت ترى أن

قضيتكم يضرها تصريح كهذا فنق أنكم لن تكسبوها.." ونتيجة لإدراك الإنجليز لخطورة دور الشيخ شاكر في التحريض ضد الإنجليز وفضح سياستهم وتولية رئاسة الاجتماعات التي انعقدت بالأزهر بهذا الشأن، سجل الشيخ النجار في يومياته عن يوم ١٣ يونيو بأن الإنجليز أرادوا أن يكمموا أفواه الشيخ شاكر ويسكتوه عن مناوأتهم، وأنهم يريدون أن يولوه مشيخة الأزهر ليسكت الحركة فيه.

ومن الموضوعات الجديرة بالاهتمام والتي تبرزها المذكرات مسألة إلقاء الطائرات البريطانية منشورات على القرى والفلاحين، منها ذلك المنشور الذي أورد نصه تحت عنوان "الحرية" والذي تحدثت فيه سلطات الاحتلال عما أحدثته من "إصلاحات" في الري وغيرها وتطور أوضاع مصر "تحت الإرشاد البريطاني" وذكرتهم بأيام الترك السوداء وتمتع المصريين "بالحرية" في ظل الاحتلال.. وقد علق الشيخ النجار على هذا المنشور بأنه "ملئ بالأقوال السخيفة والحجج الواهية"، وأن الفلاحين عندنا أكيس من أن تنطلي عليهم.. وفي ذلك كله ما فيه من قلب للأمور ومحاولة فاشلة لإيهام الناس بأن الاحتلال خير وبركة على بلادهم ومن ثم لا داعي للثورة، وأن الضروري نبذ المحرضين عليها.

وقد عالج الشيخ النجار قصة إضراب الموظفين في شهر أبريل ١٩١٩ بالتفصيل، كيف تم تدبيره وما هي نتائجه، وموقف السلطات العسكرية البريطانية والوزارة المصرية وتعاملها مع منظمي الإضراب بالترهيب والترغيب ومحاولاتها اختراقه، وتهديد القائمين عليه.. كما تضمنت المذكرات كذلك متابعة دءوبة ومفصلة لمظاهرات طلاب المدارس العامة والمدارس العليا، والتضحيات التي قدمها الشباب من شهداء وجرحى على نحو أقضَّ مضاجع الإنجليز وكشف عن بربريتهم و"تحضرهم"!!

كذلك قدمت المذكرات تسجيلاً مستفيضًا متفردًا عن مظاهرة النساء المصريات الشهيرة التي حدثت في ١٦ مارس ١٩١٩ والتي قامت بها "السيدات من كرائم العقائل، خرجن في حشمة ووقار ليعربن عن مشاركتنهن للرجال في إبداء العاطفة الوطنية نحو بلادهن.. ولم يسبق لي ولا لأحد أن رأى مثل ذلك قبل هذا اليوم.. وقد بلغ عدد السيدات المنظمات في صفين ٣٢٠ سيدة، فألفن موكبا يتقدمه أربعة من طلاب الأزهر، أمسك كل واحد منهم بطرف العلم المصري منبسطًا، ووضع الصليب داخل الهلال موضع النجوم من هذا العلم.. وطافت السيدات في موكبهن بأهم شوارع القاهرة وقصدن إلى دور الوكالات السياسية للدول، كما قصدن سراي عابدين، وكانت حاملة العلم تهتف بحياة مصر واستقلالها وسقوط الحماية، فتردد المتظاهرات الهتاف خلفها. وعند مرورهن في ميدان الأوبرا تعرض لهن بعض الجنود الإنجليز بسلاحهم الحربي، فوقفن بثبات، وكثر عدد الأجانب المطلين من الفنادق، فأفسح لهن الجنود الطريق حتى وصلن إلى قرب منزل سعد زغلول، ثم حال الجنود بينهن وبين الوصول إليه وصوبوا البنادق إلى صدورهن، فلم يرهبن، حتى انثنى الضابط خجلاً وقال لجنوده أفسحوا الطريق.. وهكذا لبثت المتظاهرات ساعتين في شارع سعد زغلول وما حوله وهن محاصرات بالبنادق.

وسوف يجد المعنيون بالكتابة عن الوحدة الوطنية مادة غزيرة عن تعاون المصريين جميعًا في مواجهة وحشية الاحتلال، وكيف فطنت القيادات الإسلامية والمسيحية لمحاولات الإنجليز إثارة فتنة طائفية، مما كشف عن معدن الشعب الحقيقي في اللحظات الحاسمة من تاريخه، الذي أثبت عمليا أنها حركة وطنية وليست حركة دينية... وقد أثبتت المذكرات كذلك أن الثورة شملت المدنيين والعسكريين على حد سواء، كما شملت مصر بأسرها في الريف والحضر والبوادي، وقد سجل الكاتب

الأحداث الثورية التي حدثت في كثير من القرى ورواها له شهود العيان من تدمير للمنشآت البريطانية وطرق مواصلاتها وخطوط السكك الحديدية، حتى أن عددًا من المدن في الأقاليم قد أعلنت استقلالها وأقامت حكومات محلية من الوطنيين، على نحو ما هو معروف. المهم أن كاتبنا وثق هذه الوقائع بأماكنها وشخصياتها وتواريخها وحوادثها الجزئية ومصادره عنها بعد تحريها.

لقد كشف شيخنا عن روح وطنية وثابة حين شارك في أحداث الثورة الوطنية، وعن حس تاريخي رشيد حين سجل يومياتها – يومياته – وكشفت تعليقاته وتحليلاته عن وعي ثاقب وروح ناقدة مستنيرة. ومما يدل على ذلك رواية ذكرها أبدى فيها اندهاشه مما ذكرته صحيفة "الأفكار" من أن جماعة اقترحوا إقامة صلاة جامعة في المساجد والكنائس ثم يعقبها أن يأخذ المصلون في الدعاء لأمتهم بالخير والعز.. الخ. وأن أصحاب الفضيلة علماء المعهد السكندري قابلوا المحافظ وقدموا إليه نص الدعاء الذي وضعوه، فوعدهم بالتصريح بإقامة الصلاة وتلاوة الدعاء بعد أن يطلع عليه ويعرضه على أولي الأمر.. فتعجب الشيخ النجار من ذلك واعتبره من أغرب الغرائب، ذلك أن قومًا يريدون أن يدعون الله بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم يحتاجون إلى تصديق الحكومة على صيغة الدعاء، وتساءل ما شأن الحكومة بدعاء يناجي به العبد ربه؟ إنها بدعة جديدة ونوع من السيطرة جديد لم يسبق له نظير في الإسلام، وضرب من احتكار العبادة لم تألفه البلاد !!.

وأخيرا، تحية إلى روح الشيخ عبد الوهاب النجار، هذاالعالم الأزهري الجليل والمستنير، والمؤرخ النابه، الذي قدم لنا مصدرا مهما من مصادرتاريخ ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩، عبر عن روح الشعب وتضحياته وقوة إرادته في مواجهة أعتى امبراطورية استعمارية آنذاك، وقدم للمؤرخين والمثقفين جميعا صفحة جليلة من تاريخ الوطن جديرة بالدرس والوعي.

أهم المراجع:

- أحمد رمزي: منادمة الحروب،أدب وسياسة وحرب، النهضة المصرية ١٩٥٣.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٤، الطبعة ١٦، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٥.
- محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم، دمشق ١٩٩٥.
- محمد عبد المنعم خفاجي: الأزهر في ألف عام، ج٢، ط٤، عالم الكتب، بيروت١٩٨٧.
- نجوى كامل: الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ١٩١٩ــ ١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩.